

أصول التفسير اللغوي للقرآن: المنهج والقواعد

*الدكتور أبو بكر

The etymological and lingual aspect of the Quran has been keenly focused on from the advent of Islam to present time. The knowledge of classical Arabic language is basic instrument to understand the meaning of Holy Quran as it was revealed in classical Arabic spoken by nomadic Arabs of that time. Someone who has no command over this classical language, will definitely fall in errors and distort the real meanings of the Quranic words. This research work deals with the importance of lexical interpretation of Holy Quran, its development in medieval centuries after Hijrah, methodologies of primitive theologians in lexical citation of Quran from classical poetry and prose with various examples from old books of tafseer . In the end, principles of lexical interpretation of Quran affirmed by primitive theologians has been elaborated and it has been analyzed that only the tool of language is not sufficient to understand the real meanings of Quranic words neglecting the traditional sources of tafseer like the Sunnah of Holy Prophet, events surrounding Revelation (asbaab al-nuzul) and explanation of the companions (sahabah).

قد اختار الله سبحانه وتعالى اللغة العربية لغة و بياناً للقرآن الكريم و فيها من مزايا التعبير و البيان ما لم تحظ به لغة غيرها ، فاللغة العربية أسمى اللغات على الإطلاق كما ارتضاه الله تعالى أداة لوحجه المترجل على خاتم النبيين صلى الله عليه وسلم ونزول القرآن الكريم بللغاً العربية الفصحى ثابت من النصوص القرآنية ومنها :

- ١- قوله تعالى: ﴿إِنَّا أَنْزَلْنَاهُ قُرْآنًا عَرَبِيًّا لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ﴾^(١)
- ٢- قوله تعالى: ﴿قُرْآنًا عَرَبِيًّا غَيْرَ ذِي عِوَجٍ لَعَلَّهُمْ يَتَّقَوْنَ﴾^(٢)
- ٣- قوله تعالى: ﴿إِنَّا جَعَلْنَاهُ قُرْآنًا عَرَبِيًّا لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ﴾^(٣)
- ٤- قوله تعالى: ﴿وَكَذَلِكَ أَنْزَلْنَاهُ قُرْآنًا عَرَبِيًّا وَصَرَفْنَا فِيهِ مِنَ الْوَعِيدِ لَعَلَّهُمْ يَتَّقَوْنَ أَوْ يُحَدِّثُ لَهُمْ ذِكْرًا﴾^(٤)

قد أمرنا الله تعالى بتدبر القرآن الكريم بقوله : ﴿كِتَابٌ أَنْزَلْنَاهُ إِلَيْكَ مُبَارَكٌ لِيَدَبَّرُوا آيَاتِهِ وَلِيَتَذَكَّرَ أُولُو الْأَلْبَاب﴾^(٥) والتدبّر لا يأتي لم يقرأ القرآن بغير فهم مفرداته ومعانيه حسب أساليب لغة العرب وهذا هو التفسير اللغوي.

*الأستاذ المساعد، قسم اللغة العربية، جامعة بنجاح لاهور

التفسير اللغوي: المراد من التفسير اللغوي بیان معانی القرآن بما ورد في لغة العرب من ألفاظها وأسالیٰ بها التي نزل بها القرآن كما يقول الشاطبی (ت ۵۷۹): "فإن قلنا إن القرآن نزل بلسان العرب، وإنه عربي، وإنه لا عجمة فيه، فيعني أنه نزل على لسان معمود العرب في ألفاظها الخاصة وأسالیٰ بمعانیها، وأنها فيما فطرت عليه من لسانها تخاطب بالعام يراد به ظاهره، وبالعام يراد به العام في وجه والخاص في وجه، وبالعام يراد به الخاص، وظاهر ويراد به غير الظاهر، وكل ذلك يعرف من أول الكلام أو وسطه أو آخره" ^(۶).

والتفسير اللغوي يحتوي على الجزئين ، الأول: تفسير الألفاظ و الثاني: تفسير الأسالیب.

الأول- من أمثلة تفسير الألفاظ ، تفسير عمر بن الخطاب(ت ۲۳) لكلمة (زوجت) في قوله تعالى : ﴿وَإِذَا النُّفُوسُ زُوْجَتْ﴾^(۷) قال رضي الله عنه: (يقرب بين الرجل الصالح مع الصالح في الجنة، وبين الرجل السوء مع الرجل السوء في النار)^(۸). فقوله : (يقرب) تفسير لفظي لمعنى التزویج في الآية . وهذا هو أصل معنى اللفظ لغويا ، و "الراء والواو والجيم" : أصل يدل على مقارنة شيءٍ بشيءٍ^(۹) . أو تفسير ابن عباس رضي الله عنهم (ت ۵۶۸) في معنى كلمة (دھاق) من قول ه تعالى: ﴿وَكَاسًا دِهَاقًا﴾^(۱۰) و لما سُئل فيه، قال : (ملاي)^(۱۱) و أصل معنى هذه الكلمة : (الدال والهاء والقاف) : يدل على امتلاء في مجيء و ذهاب واضطراب . يقال : أد هقت الكأس^(۱۲) .

الثاني- و من أمثلة تفسير الأسالیب ، تفسير أبي عبيدة(ت ۲۱۰) لقوله تعالى :

﴿وَيَنْفَكِرُونَ فِي خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ رَبَّنَا مَا خَلَقْتَ هَذَا بَاطِلًا سُبْحَانَكَ فَقِنَا عَذَابَ النَّارِ﴾^(۱۳) قال : "والعرب تختصر الكلام ليختصر وعلم المستمع بتما مه، فكأنه في تمام القول: ويقولون : "ربنا ما خلقت هذا باطلاً"^(۱۴) .

والتدبر لا يأتي من يقرأ القرآن بغير فهم لألفاظه ومعانیه، فكان التفسير هو النور الذي يبعد ظلام الجهل ويكشف للمسلم عن مراد الله بقدر ما يسر الله له هذه العقول من فهم، وبقدر ما منحت من علم ، ﴿وَمَا أُوتِيْتُمْ مِنَ الْعِلْمِ إِلَّا قَلِيلًا﴾^(۱۵)

والألفاظ تنقسم إلى : مفردة و مركبة، و الألفاظ المفردة تنقسم إلى قسمين : الخاص والعام : أما العام فهو ما يشتهر في معرفته جهور أهل اللسان العربي . و أما الخاص فهو ما ورد فيه من الألفاظ اللغوية، والكلمات الغريبة التي لا يعرفها إلا من له اطلاع و تبحر في اللغة العربية^(١) . فكان الاهتمام بمعرفة هذا النوع الخاص من الألفاظ أهم مما سواه وأولى بالبيان مما عداه، لذا اهتم به علماؤنا الأفضل ومنحوه نفائس أوقاتهم خدمة لهذا الكتاب العزيز ويقول الإمام الراغب(ت ٥٥٢): "إن أول ما يحتاج أن يشغله من علوم القرآن العلوم اللغوية، ومن العلوم اللغوية تحقيق الألفاظ المفردة، فتحصيل معايير مفردات ألفاظ القرآن في كونه من أوائل المعاون في بناء ما يبرئه أن يربوه، وليس ذلك نافعاً في علم القرآن فقط، بل هو نافع في كل علم من علوم الشرع، فالالفاظ القرآن هي لب كلام العرب وزيد ته، وواسطته، وكراعته، وعلىه اعتماد الفقهاء والحكماء في أحكامه وحكمه و إلي ١٥ مفرع حذق الشعراء والبلغاء في نظمه ونثرهم، وما عداه وعدا الألفاظ المتفرعات عنهما والمشتقات منه و بالإضافة إليها كالقصور والنوي بالاضافة إلى أطابق الشمارة، وكالحثالة والتبن بالإضافة إلى لبوب الحرطة"^(١٧) .

أهمية التفسير اللغوي:

إن معرفة اللغة العربية شرط في فهم القرآن؛ لأن من أراد تفسيره ، و هو لا يعرف اللغة التي نزل بها القرآن، فإنه لا شك سيقع في الرلل، بل سيفسر الكلم عن مواضعه، كما حصل من بعض المبتدعـة الذين حملوا القرآن على مصطلحات أو مدلولات غير عربية . تعد معرفة اللغة العربية من أهم الأدوات لفهم القرآن الكريم وتفسيره، إذ القرآن نزل باللسان العربي، فلا شك أنه لا يصح فهمه وتفسيره إلا عن طريق ذاك اللسان الذي نزل به الروح الأمين على قلب النبي الكريم صلى الله عليه وسلم . ويقول الشاطبي (ت ٥٧٩): القرآن نزل بلسان العرب على الجملة، فطلب فهمه إنما يكون من هذا الطريق خاصة، لأن الله تعالى يقول: {إِنَّا أَنْزَلْنَاهُ قُرْآنًا عَرَبِيًّا} (يوسف:٢)، وقال: {بِلِسَانٍ عَرَبِيٍّ مُّبِينٍ} (الشعراء: ١٩٥)، وقال: {لِسَانُ الَّذِي يُلْحِدُونَ إِلَيْهِ أَعْجَمِيٌّ وَهَذَا لِسَانٌ عَرَبِيٌّ مُّبِينٌ} (النحل: ٣).

وقال: {وَأَلْوَ جَعَلْنَا قُرْآنًا أَعْجَمِيًّا لَقَالُوا لَوْلَا فُصِّلَتْ آيَاتُهُ أَعْجَمِيًّا وَعَرَبِيًّا} (فصلت: ٤٤). إلى غير ذلك مما يدل على أنه عربي وبلسان العرب، لا أنه أعمامي ولا بلسان العجم، فمن أراد تفهمه، فمن جهة لسان العرب يفهم، ولا سبيل إلى تطلب فهمه من غير هذه الجهة^(١٨).

وقال الإمام ابن تيمية (ت ٥٧٢٨): "فإن الله تعالى لما أنزل كتابه باللسان العربي، وجعل رسوله مبلغا عنه لكتاب الحكم بلسانه العربي، وجعل السابقين إلى هذا الدين متكلمين به؛ لم يكن سبيلا إلى ضبط الدين ومعرفته إلا بضبط اللسان، وصارت معرفته من الدين، وصار اعتبار التكلم به أسهل على أهل الدين في معرفة دين الله، وأقرب إلى إقامة شعائر الدين، وأقرب إلى مشايخهم للسابقين الأولين من المهاجرين والأنصار، في جميع أمورهم... وللسان تقارنه أمور أخرى: من العلوم والأخلاق، فإن العادات لها تأثير عظيم فيما يحبه الله وفيما يكرهه، فلهذا أيضا جاءت الشريعة بلزوم عادات السابقين الأولين، في آقوالهم وأعمالهم، وكراهة الخروج عنها إلى غيرها من غير حاجة"^(١٩).

قال ابن فارس (ت ٥٣٩): "إن العلم بلغة العرب واجب على كل متعلق من العلم بالقرآن لا ريب أن معرفة اللفظة في القرآن الكريم هي البنية الأولى في فهم كلام الله تعالى، وهي من أول ما يستعين به المفسر في التفسير والتأويل، وقد نبه العلماء إلى وجوب معرفة وتعلم هذا الفن ووجوهه المختلفة"^(٢٠).

فمن أغفل عن دلالة اللفظ أو جعل معناه في لغة العرب، فقد وقع في الزلل كما يجد كثيرا من الآباء مثل في كتب الآباء في اللغة العربية. وقد حكى أبو حاتم السجستاني (ت ٥٢٥) عن الأخفش النحوي البصري (٢١٥)، أنه فسر قوله تعالى : ﴿فَظَنَّ أَنْ لَنْ تَقْدِرَ عَلَيْهِ﴾^(٢١) من القدرة.

قال الأذري (ت ٣٧٠): قال (أبي: أبو حاتم): " ولم يدر الأخفش ما معنى نقدر، وذهب إلى موضع القدرة، إلى معنى: فظن أن يفوتنا . ولم يعلم كلام العرب، حتى قال : إن بعض المفسرين قال : أراد الاستفهام : أ فظن أن لن نقدر عليه.

ولو علم أن معنى نقدر: نضيق ، لم ينحيط **هذا الخطأ** - ولم يكن عالماً بكلام العرب، وكان عالماً بقياس النحو". ثم قال الأزهري (ت ٥٣٧٠) : "و المعنى ما قدره الله عليه من التضييق في بطن الحوت، ويكون المعنى : ما قدره الله عليه من التضييق؛ كأنه قال : ظن أن لن نضيق علي هـ وكل ذلك شائع في لغة العرب، والله أعلم بما أراد. فاما أن يكون قوله : **﴿أَنْ لَنْ تَقْدِرَ عَلَيْهِ﴾** في القدرة فلا يجوز ؛ لأن من ظن هذا كفر، والظن : شك ، والشك في قدرة الله كفر، وقد عصم الله أنبياءه عن مثل ما ذهب إلى هـ هذا المتأول -ولا يتأوه إلا الجاهل بكلام العرب ولغاتها"⁽²²⁾.

فكل من فسر القرآن ، وهو جاہل بلغة العرب ، أو سالك غير طريق هـ ، فإنه قد وقع في الخطأ الأكيد، وجانب الصواب . وينبغي هنا أن نعرف أن اللغة ليست المصدر الوحيد الذي يمكن لمن أحكمه أن يفسر القرآن، إذن لا بد للمفسر من معرفة مصادر أخرى يعتمد على هـ في تفسير هـ؛ كالسورة النبوية، وأسباب التزول، وقصص الآي، وأحوال من نزل في هـ الخطاب، وتفسيرات الصحابة والتابعين وتابعهم ، وغير هـ من المصادر التي لا يمكنأخذها عن طريق اللغة . و بهذا يعلم أن التفسير اللغوي جزء من علم التفسير ، ومع أن حيز هـ كبير، فإنه لا يستقل بتفسير القرآن⁽²³⁾.

التفسير اللغوي عند القدماء

إن القرآن حين نزل على رسول الله صلى الله عليه وسلم كان العرب يفهمونه ، لأن نزل بلغة قريش وما نزل بغيرها ومالم يكن الصحابة يعرفونه يسألون النبي صلى الله عليه وسلم عنه، فيشرح لهم، فتشير صدور هـ . وعلى ذلك سار الصحابة والتابعون.

فكان الرسول صلى الله عليه وسلم شارحا و مفسرا لما أنزل إليه من ربه تعالى كما قوله عز وجل : **﴿وَأَنَّا إِلَيْكَ الْذِكْرَ لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُرِّزُ إِلَيْهِمْ﴾**⁽²⁴⁾ وأمثال علم غريب القرآن الأولى الشفوقي نشاهدها في تفسير رسول الله لأصحابه الكلمات التي لم يعرفوا معناها من القرآن الكريم. إن الرسول صلى الله عليه وسلم كان أفعى العرب لسانا، و كان يخاطب العرب على اختلاف شعوبهم وقبائلهم وتبين بطونهم

وأفخاذهم وفصالهم، كلا منهم بما يفهمون، ويجادلهم بما يعلمون . فكأن الله عز وجل قد أعلم ما لم يكن يعلم غيره من بين أبيه، وكان أصحابه ومن يفت عليه من العرب يعرفون أكثر ما يقولون وما جعلوه سأله عن فيوضحه لهم⁽²⁵⁾.

إن النبي صلى الله عليه وسلم لم يفسر للصحابة من ألفاظ القرآن إلا ما احتاجوا إلىه، وهو قليل، وإيضاحات رسولنا الكريم اللغوية في القرآن الكريم غالباً ما كانت ردّاً لسؤال ، وأكثر إيضاحاته ليست مشابهة لإيضاحات أهل اللغة والتفسير ، و هو يجيب حسب مستوى السائل ويفهم المعنى من أقرب طريق بدون تطويل و في بعض الأحيان يأتي بمرادف الكلمة أو يعرفها بالوصف، أو بين ما هو المقصود منها، وبين المعنى الشرعي للكلمة⁽²⁶⁾. وعلى سبيل المثال: عن عائشة(ت ٥٨٥) رضي الله عنها أنها سالت النبي صلى الله عليه وسلم عن هذه الآية: ﴿وَمَا جَعَلْتُ عَلَيْكُمْ فِي الدِّينِ مِنْ حَرَجٍ﴾⁽²⁷⁾ قال صلى الله عليه وسلم: الضيق⁽²⁸⁾. وعن أم سلمة(ت ٥٩٥) رضي الله عنها قالت: يارسول الله أخبرني عن قول الله تعالى ﴿وَحُورٌ عَيْنٌ﴾⁽²⁹⁾ قال: حور: بيض، عين: ضمام العيون شفر الحوراء———(أترابا): على ميلاد واحد⁽³⁰⁾. وفسر النبي صلى الله عليه وسلم (عدي) في قوله تعالى : ﴿لَا يَنَالُ عَهْدِي الظَّالِمِينَ﴾⁽³¹⁾ كما روی عن علي بن أبي طالب (ت ٥٤٠) رضي الله عنه عن النبي صلى الله عليه وسلم قال ، قال صلى الله عليه وسلم : (عدي) نبوتي⁽³²⁾ فبين صلى الله عليه وسلم أن المقصود بـ(عدي) هو نبوتي . عن نواس بن سمعان(ت ٦٧٥) قال : فسائل عن البر والاثم ، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : البر: حسن الخلق، والاثم: ما حاك في صدرك وكروهت أن يطلع عليه الناس⁽³³⁾ . و إيضاح الرسول صلى الله عليه وسلم لعدي بن حاتم(ت ٦٧٥) عندما أشكل علىه "الخيط الأبيض والأسود" و رواه الإمام البخاري في الصحيح في قوله تعالى : ﴿وَكُلُوا وَاشْرُبُوا حَتَّى يَتَبَيَّنَ لَكُمُ الْخَيْطُ الْأَيْضُ مِنَ الْخَيْطِ الْأَسْوَدِ مِنَ الْفَجْرِ﴾⁽³⁴⁾ ، ففسره عليه وسلم بأنه بياض النهار وسود الليل⁽³⁵⁾.

إن الصحابة كانوا يتلون القرآن على ما يفهمونه من لغتهم، لوضوح ذلك عندهم، فإذا أشكل عليهم من شيء سأله رسول الله صلى الله عليه وسلم، كما يظهر مما حدث بعدي بن

حاتم(ت٥٦٧) أو من حديث ابن مسعود (ت٥٣٥)، قال: لما نزلت : ﴿الَّذِينَ آمَنُوا وَلَمْ يُلْبِسُوا إِيمَانَهُمْ بِظُلْمٍ﴾⁽³⁶⁾ قلنا : يارسول الله، وأينا لم يظلم نفسه؟ قال : "ليس كما تقولون ، لم يلبسو إيمانهم بظلم: بشرك، ألم تسمعوا إلى قول لقمان لابعه: ﴿يَا بُنَيَّ لَا تُشْرِكُ بِاللَّهِ إِنَّ الشَّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ﴾⁽³⁷⁾" .

و الواضح من هذا الحديث أن الصحابة كانوا يجهدون في فهم القرآن، فلما أشكل عليهم منه شيء سألا رسول الله عليه وسلم، وهذا ظاهر من هذا الحديث؛ لأنهم جعلوا معنى الظلم عاما على ما يعرفونه من لغتهم ، فأرشدتهم النبي عليه وسلم إلى المعنى المراد به في الآية

قد وقع بين الصحابة خلاف محقق في تفسير بعض المفردات القرآنية التي لها أكثر من دلالة لغوية، نحو اختلافهم في لفظ : (القرء) في قوله تعالى : ﴿وَالْمُطَلَّقَاتُ يَتَرَبَّصْنَ بِأَنفُسِهِنَّ ثَلَاثَةُ قُرُوْءٍ﴾⁽³⁹⁾، فقد ورد في معنى القرء قولان، كلا هما معتمد على اللغة، وهما:

الأول : فسر جماعة من الصحابة مثل عمر بن الخطاب (ت٥٢٣)، وأبي بن كعب (ت٥٣٠)، وعبد الله بن مسعود (ت٥٣٥)، وعلي بن أبي طالب (ت٥٤٠)، وأبو موسى الأشعري (ت٥٤٣)، وابن عباس (ت٥٦٨) رضي الله عنهم بأن القرء: الحيض. **الثاني:** و قال زيد بن ثابت (ت٥٥٥)، وعائشة (ت٥٥٨)، ومعاوية بن أبي سفيان (ت٦٠)، وعبد الله بن عمر (ت٥٧٤) رضي الله عنهم اجمعين، القرء: الظهر⁽⁴⁰⁾. و نستنتج من هذا التفسير اللغوي المروي عن النبي صلى الله عليه وسلم أو عن الصحابة بعض النقاط التالية:

- 1- ما فسر رسول الله للصحابة مفردات القرآن إلا ما سئلوه عنها.
- 2- فمن العلماء من ذهب إلى القول بأنه فسر كل القرآن، ومنهم من ذهب إلى أنه لم يفسر منه إلا القليل. والتوسط في القول بأن الرسول فسر من القرآن بالقدر الذي أشكل على أصحابه.
- 3- وقد وقع خلاف محقق بين الصحابة في تفسير مفردات القرآن بعد رسول الله صلى الله عليه وسلم.

4- وقد وضع القرآن الكريم للكلمات العربية بعض مدلولات لم يعرفها العرب من قبل.

5- ولو كان عند هؤلاء الصحابة الكرام خبر عن الرسول ﷺ في تفسير هذه اللفظة لنقلوه، ولما لم يكن عندهم ،اجتهدوا في بيان المراد معتمدين في ذلك على لغتهم. إن الصحابة اجتهدوا في معرفة ما لم يرد في سنة النبيّ الكريم بأسرار اللغة و مدلولاتها المختلفة و معرفتهم بأحوال العرب و عاداتهم و قوّة الفهم و سعة الإدراك. ثم لحق بالصحابيّ أعلام التابعين من تلّمذ عليهم، وبرز في علم التفسير؛ كسعید بن جبیر(ت ٥٩٤) و مجاهد بن جبیر (ت ٥١٠٤)، وفتاًدہ بن دعامة السدوسي (ت ١١٧) و غيرهم. ولقد استمر الاجتهداد في التفسير في جيل التابعين وأتباعهم ،حيث اعتمد كل هؤلاء على اللغة في بيان التفسير. ثم حمله جيل أتباع التابعين بعض أعلام المفسرين؛ كإسماعيل السدي الكوفي (ت ٥٢٨)، وعبد الملك ابن جریح المکی (ت ٥١٥٠)، وعبد الرحمن بن زید بن أسلم المدنی (ت ٥١٨٢)، ویحیی بن سلام البصري (ت ٥٢٠٠). ومن الأمثلة التي وقع فيها الخلاف بين هؤلاء في طبقاتهم الثلاث، اختلافهم في لفظ (عسوس) في قوله تعالى : «وَاللَّيلُ إِذَا عَسَّسَ»^(٤١) فقد ورد عرّهم في ذلك معنیان:

الأول : روى عن علي بن أبي طالب (ت ٥٤)، وابن عباس (ت ٥٦٨)، والضحاك بن مزاحم (ت ٥١٠٥)، وفتاًدہ (ت ١١٧)، وابن زید (ت ٥١٨٢) أنهم قالوا: الليل إذا عسوس أي أدبر.

والثاني: قال مجاهد (ت ٥١٠٤)، والحسن البصري (ت ٥١١٠)، وعطاء العوفي (ت ٥١١١) : والليل إذا أقبل^(٤٢).

منهج السلف في الاستشهاد اللغوي:

نجد طريقين في البيان اللغوي للقرآن عند العلماء القدامى :

الطريق الأول: أن يذكروا معنى اللفظة في اللغة دون أن ينصّوا على ما يدلّ عليها من شعر أو نثر. هذا هو الأغلب فيما ورد عنهم من تفسيراتهم اللغوية، إذ ينص المفسر منهم على معنى اللفظ، دون أن يستشهد لتفسيره هنا^(٤٣). نجد كثيراً من الأمثلة

عندthem ، نحو تفسير ابن عباس (ت ٥٦٨) في معنى كلمة (لا وزر) من قوله تعالى ﴿كَلَّا لَّا وَزَرَ﴾⁽⁴⁴⁾، قال: (لا حصن ولا ملجم)، وأيضاً روي عنه، قال: (لا حرث) ⁽⁴⁵⁾ . وهذا أحد معانٍ للفظة في اللغة.

الطريق الثاني: أن يستشهدوا من كلام العرب المنظوم والمشور لمعنى لفظة القرآن. أمّا الاستشهاد من الشعر، فنقل السيوطي (ت ٩١١٥) قول ابن عباس (ت ٥٦٨) رضي الله عنه ما: "الشعر ديوان العرب، فإذا خفى علينا الحرف من القرآن ، الذي أنزله الله بلغة العرب، رجعنا إلى ديوانها، فالتمسنا معرفة ذلك منه"⁽⁴⁶⁾. وقوله: "إذا سألتمني عن غريب القرآن فالتمسوا في الشعر، فإن الشعر ديوان العرب" و كذلك يقول : "إذا قرأتم شيئاً، فلم تدرروا ما تفسير ه فالتمسوا في الشعر، فإنه ديوان العرب"⁽⁴⁷⁾.

إن عبد الله بن عباس (ت ٥٦٨) كان يسأل عن معنى ألفاظ معينة من القرآن الكريم، فيفسره الناس، ويستشهد على تفسيرها بأبيات من الشعر العربي . وقد جمعت هذه الأسئلة و إجابتها في كتاب مستقل بـ "سؤالات نافع بن الأزرق إلى عبد الله بن عباس" نشره الدكتور إبراهيم السامرائي ببغداد سنة ١٩٦٨م . واقتصر على مثال واحد منه:

قال نافع : "يا ابن عباس ! أخبرني عن قول الله عزوجل : ﴿وَابْتُعُوا إِلَيْهِ الْوَسِيلَة﴾⁽⁴⁸⁾ " ، قال: "الوسيلة : الحاجة" . قال : "أو تعرف العرب ذلك ؟" قال : "نعم ، أما سمعت عترة العبسي (ت ٦١٥م) ، وهو يقول :

إن الرجال لهم إلىك وسيلة
إن يلحدوك تحلى و تخضبي

وهكذا يمضي نافع يسأل ، وابن عباس يفسر ، ويستشهد على تفسيرها ببيت من الشعر⁽⁴⁹⁾. هناك خلاف بين العلماء المفسرين واللغويين في تقييد الاستشهاد اللغوي بالشعر. إن علماء اللغة قد توافقوا حول متصفح القرن الثاني الهجري، فقبلوا كل مكان قبل ذلك سواء أكان شعراً أم ثراً عن البدو أو عن الحضر، فإذا العصر الطويل المدى الذي يمتد قرناً ونصف قرن في الإسلام وربما امتد قرولاً قبل ذلك في الجاهليّة اعتبرت المادة المرويّة منه كلهـا وسيلة صالحة للاستشهاد⁽⁵⁰⁾.

هناك صورتان للاستشهاد من الشواهد الشعرية التي يستدل بها مفسرو السلف واللغويون:

الصورة الأولى - أن يورد المفسر الشعر المستشهد به مكتفيا فيه بورود اللفظ المستشهد له وإن لم يتضح معناه في بيت الشعر الذي استعين به على فهم معنى اللفظ. وأكثر الشواهد الشعرية المستشهد بها جاءت على هذه الصورة، كما قال أبو عبيدة(ت.٥٢١٠)، على سبيل المثال، في قوله تعالى: ﴿وَأَمْرَتِي عَاقِرٌ﴾^(٥١)، العاقر: التي لا تلد، والرجل العاقر: الذي لا يولد له، قال عامر بن طفيل:

لبنس الفتى إن كنتُ أعورَ عاقراً جباناً فما عندي لدى كلّ محضر^(٥٢)

إن أبا عبيدة(ت.٥٢١٠) فسر العاقر في الآية بأنها التي لا تلد، ثم استدلّ لذلك التفسير بهذا البيت، غير أن اللفظ في البيت غير مفسر، بل هو يحتاج إلى تفسير.

الصورة الثانية- أن يكون سياق الشعر مبيناً عن معنى اللفظ و موضحاً لمعنى اللفظ القرآني بذاته، كما قال ابن قتيبة(ت.٥٢٧٦)، على سبيل المثال، في قوله تعالى: ﴿حَتَّىٰ تَضَعَ الْحَرْبُ أُوزَارَهَا﴾^(٥٣)، أي: يضع أهل الحرب السلاح، قال الأعشى:

و أعددتُ للحرب أوزارها رماحاً طوالاً، وخيلاً ذكوراً
و من نسج داود يُحدى لها على أثر الحيّ ، عيراً فغيراً^(٥٤)

إن الأعشى في هذا البيت يبيّن مدلول اللفظ الذي ذكره. قد استفاد المفسرون و فقهاء اللغة بالشاهد الشعري في بيان الأسلوب القرآني.

أما الاستشهاد للبشر العربي فهو أن يعتمد المفسر على شيء من كلام العرب المشور أو ينصّ على لغة القبيلة التي نزل القرآن بلفظها. و نجد كثيراً من الأمثلة عند الصحابة إذ وقع لبعض منهم عدم معرفة لمعاني ألفاظ القرآن واستشهدوا من لغة قبيلة كما روى عن ابن عباس أنه أبصر رجلاً يسوق بقرة، فقال: من بعلٌ هذه؟ فدعاه، فقال: من أنت؟ قال: من أهل اليمن. فقال: هي لغة ﴿أَئْدُعُونَ بَعْلًا﴾^(٥٥) أي: ربّاً^(٥٦). و روی أيضاً عنه، قال: عرفت المفهوم الصحيح لقول تعالى (فاطر السموات) حين جاء إلى "أعرابيان بقضية نزاع بشر بينه ما فقال أحد هم عن اثبات الملكية في حقه "أنا فطرتكم" فحلت مشكلتي في فهم معنى هذه الكلمة وفهمت المفهوم الصحيح لها ، أي:

ابتدأها⁽⁵⁷⁾. إن المفسرين و اللغويين استشهدوا بالنشر في تفسير كلمات القرآن سوا أن ينصّوا على لغة عامة العرب أو على لغة القبيلة التي نزل بها القرآن.

قواعد التفسير اللغوي :

درج الصحابة رضي الله عنهم في فهم كثير من معاني القرآن على ما عرفوه من لغتهم التي نزل بها القرآن، ووجوه مخاطبها. ولم يكن النبي صلى الله عليه وسلم ينكر عليهم ذلك التعويل على اللغة، كما كانوا يستدلّون أحياناً على تقرير المعنى بشيء من أشعار العرب، وعلى هذا السبيل جرى التابعون وأتباعهم دون نقير. لا يجوز للمفسر أن يخرج باللغة عن أقوال السلف من الصحابة والأئمة والخلف من التابعين وعلماء الأمة كما قال الطبرى (ت ٥٣١٠) في هذه القاعدة:

"إِذْ كَانَ ذَلِكَ كَذَلِكَ، فَأَحَقُّ الْمُفْسِرِينَ بِإِصَابَةِ الْحَقِّ - فِي تَأْوِيلِ الْقُرْآنِ الَّذِي إِلَى عِلْمِ تَأْوِيلِهِ لِلْعَبَادِ السَّبِيلُ - أَوْضَحُهُمْ حُجَّةٌ فِيمَا تَأَوَّلُ وَفَسَرَّ، مَا كَانَ تَأْوِيلَهُ إِلَى رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ دُونَ سَائِرِ أُمَّتِهِ مِنْ أَخْبَارِ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ الثَّابِتَةِ عَنْهُ: إِمَّا مِنْ جَهَةِ النَّقْلِ الْمُسْتَفِيَضِ، فَيُمَارَدُ فِيهِ مِنْ ذَلِكَ عَنْهُ النَّقْلُ الْمُسْتَفِيَضُ، وَإِمَّا مِنْ جَهَةِ نَقْلِ الْعَدُولِ الْأَثَابَاتِ، فَيُمَارَدُ فِيهِ مِنْ ذَلِكَ عَنْهُ النَّقْلُ الْمُسْتَفِيَضُ، أَوْ مِنْ جَهَةِ الدَّلَالَةِ الْمُنْصُوبَةِ عَلَى صَحَّتِهِ؛ وَأَصْحَّهُمْ بِرَهَانًا - فِيمَا تَرَجَّمَ وَبَيَّنَ مِنْ ذَلِكَ - مَا كَانَ مُدْرَكًا عَلَمُهُ مِنْ جَهَةِ الْلِّسَانِ: إِمَّا بِالشَّوَاهِدِ مِنْ أَشْعَارِهِمُ السَّائِرَةِ، وَإِمَّا مِنْ مَنْطَقِهِمْ وَلِغَاقِهِمُ الْمُسْتَفِيَضَةِ الْمُعْرُوفَةِ، كَائِنًا مِنْ كَانَ ذَلِكَ الْمُتَأَوِّلُ وَالْمَفْسُرُ، بَعْدَ أَنْ لَا يَكُونَ خَارِجًا تَأْوِيلُهُ وَتَفْسِيرُهُ مَا تَأَوَّلُ وَفَسَرَ مِنْ ذَلِكَ، عَنْ أَقْوَالِ السَّلْفِ مِنَ الصَّحَّابَةِ وَالْأَئِمَّةِ، وَالْخَلْفِ مِنَ التَّابِعِينَ وَعِلَّمَاءِ الْأَمَّةِ"⁽⁵⁸⁾.

لا يجوز أن يحمل كلام الله تعالى على مجرد الاحتمال النحوى أو اللغوى ، إن للقرآن عرف خاص ومعانٍ معهودة لا يناسبه أن نفسره بغيرها فإن نسبة معانيه إلى باقي المعانى كنسبة ألفاظه إلى باقي الألفاظ ، بل أعظم. حكماً أنه ألفاظه ملوك الألفاظ وأفصحها وأجلها فكذلك معانيه. فلا يجوز تفسيره بغيرها من المعانى التي لا تليق به ولا يحمل على المعانى القاصرة بمجرد الاحتمال النحوى⁽⁵⁹⁾. بين ابن القيم(ت ٥٧٥١) هذا الضابط بالتفصيل مع الأمثلة من القرآن الكريم واعتبره من أهم أصول التفسير⁽⁶⁰⁾.

كل تفسير لغوي وارد عن السلف يُحکم بعربيته، وهو مقدم على قول اللغويين. كل ما ورد عن السلف الكرام من تفسير ألفاظ القرآن، فإنه جار على لغة العرب، وهو حجة يجب الاحتكام إليه، ولا يصح ردّه ولا الاعتراض عليه⁽⁶¹⁾. نجد بعض اللغويين يذكرون بعض الألفاظ لم تعرف دلالتها إلا عن المفسرين، كما قال أبو جعفر التحساس(ت ٣٣٨) في تفسير كلمة(تفَّتَ) في قوله تعالى: ﴿ثُمَّ لَيْقُضُوا تَفَّتُهُم﴾⁽⁶²⁾ :عن ابن عباس قال : "التفت الحلق والتقصير والرمي والذبح والأخذ من الشارب واللحية وتفت الإبط وقص الإظفار" ثم يقول: " وكذلك هو عند جميع أهل التفسير أي الخروج من الإحرام إلى الحل لا يعرفه أهل اللغة إلا من التفسير"⁽⁶³⁾.

كل معنى مستنبط من القرآن غير جار على اللسان العربي فليس من علوم القرآن في شيء و هذه قاعدة تبطل تأويلاًات الباطنية والعقائد الكلامية المخالفة لعقيدة السلف والتفسيرات الاشارية ، والتكميلات المبنية على حساب الحروف والجمل⁽⁶⁴⁾. قد نقل القاسبي(ت ١٣٢٢) نماذج كثيرة للتأويلاًات الباطنية والكلامية ومنها: **تفسير أحد** من أرباب الكلام من ادعى جواز نكاح الرجل من تسع نسوة حرائر. مستدلاً على ذلك بقوله تعالى: ﴿فَإِنِّكُحُوا مَا طَابَ لَكُمْ مِّنَ النِّسَاءِ مُّثْنَى وَثُلَاثَ وَرُبَاعٍ..﴾ [النساء: ٣] ولا يقول مثل هذا من فهم وضع العرب في مثنى وثلاث ورابع. ومنهم من يرى شحم الخنزير وجلدته حلالاً لأن الله قال: ﴿مُحُرِّمٌ عَلَيْكُمُ الْمَيْتَةُ وَالدَّمُ وَلَحْمُ الْخِنْزِيرِ﴾ [المائدة: ٣] فلم يحرم شيئاً غير لحمه. ولنفط اللحم يتناول الشحوم وغيره بخلاف العكس⁽⁶⁵⁾.

إنه لا بد في فهم الشريعة من اتباع معهود الأميين، وهم العرب الذين نزل القرآن بلسانهم. فإن كان للعرب في لسانهم عرف مستمر، فلا يصح العدول عنه في فهم الشريعة. وإن لم يكن ثم عرف، فلا يصح أن يجري في فهمها ما لا تعرفه. وهذا جار في المعاني والألفاظ والأساليب. مثال ذلك: أن معهود العرب أن لا ترى الألفاظ تعبداً عند محافظتها على المعانٰي، وإن كانت تراعيها أيضاً، فليس أحد الأمراء عندها بملتزم، بل قد تبني على أحدهما مرّة، وعلى الآخر أخرى، ولا يكون ذلك قادحاً في صحة كلامها واستقامتها⁽⁶⁶⁾. إن أهل البدع حرفوا معانٰي قول الله عز وجل ﴿بِلِ يَدِهِ مَبْسُوطَتَانِ﴾ وقوله تعالى ﴿لَمَا خَلَقْتَ بِيَدِي﴾ وما شابه ذلك النصوص وزعموا أن اليد

هنا بمعنى النعمة. قال الأشعري(ت ٥): "وليس يجوز في لسان العرب ولا في عادة أهل الخطاب أن يقول القائل: عملت كذا بيدي ويعني به النعمة، وإذا كان الله عز وجل إنما خاطب العرب بلغتها وما يجري مفهوما في كلامها، و معمولاً في خطابها، وكان لا يجوز في لسان أهل البيان أن يقول القائل: فعلت بيدي، ويعني النعمة، بطل أن يكون معنى قوله عز وجل ﴿يَدِي﴾ النعمة، و ذلك أنه لا يجوز أن يقول القائل: لي عليه يد معنى: لي عليه النعمة" ^(٦٧).

و بجملة القول يجب أن يفسر القرآن بمقتضى اللغة يراعى المعنى الأغلب المشتهر دون النادر القليل ^(٦٨). نجد الخلاف، على سبيل المثال، عند المفسرين في تفسير كلمة (برداً) في قوله تعالى: ﴿لَا يذوقون فيها برداً ولا شراباً﴾^(٦٩) البرد له معنيان: الأول: ما يبرد حر الجسم ، وهو المشهور المتداول المتعارف عليه عند العرب. والثاني: النوم ، وهو قليل الاستعمال في لغة العرب ، فتحتمل الآية على المعنى الأول دون الثاني ^(٧٠). لأن التأويل في القرآن على الأغلب الظاهر من معروف كلام العرب المستعمل ^{فيهم} ^(٧١). فلا يجوز لمفسر القرآن أن يخرج باللغة عن أقوال السلف من الصحابة والأئمة والخلف من التابعين وعلماء الأمة كما لا يجوز أن يحمل كلام الله تعالى على مجرد الاحتمال التصوّي أو اللغوي.

المواهش

- ١- سورة يوسف ، الآية : ٢
- ٢- سورة الزمر ، الآية : ٢٨:
- ٣- سورة الزخرف ، الآية : ٣
- ٤- سورة طه ، الآية : ١١٣
- ٥- سورة ص ، الآية : ٢٩
- ٦- الشاطبي ، إبراهيم بن موسى : المواقفات ، تحقيق: محى الدين عبد الحميد ، مكتبة محمد على صبيح ، مصر ، ٤٥-٤٦/٢
- ٧- سورة التكوير ، الآية : ٧
- ٨- الطبراني ، محمد بن جرير: جامع البيان عن تأويل آي القرآن ، مكتبة مصطفى الباجي الحلي ، مصر، ط ٣٠، ١٣٨٨هـ / ٦٩
- ٩- ابن فارس: مقاييس اللغة، تحقيق: عبد السلام هارون، دار الكتب العلمية، بيروت، ٣/٣٥

- 10- سورة النباء ، الآية : ٣٤
- 11- الطبرى، محمد بن جرير: جامع البيان عن تأویل آي القرآن ، ٣٠ / ١٩
- 12- ابن فارس: مقاييس اللغة ، ٢ / ٣٠٧
- 13- سورة آل عمران^٧ الآية: ١٩١
- 14- ابو عبيدة: بحاجز القرآن ، مؤسسة الرسالة، بيروت، ط ٢، ١٤٠١ - ٥١٤٠١ / ٢٧٣
- 15- سورة الاسراء، الآية : ٨٥
- 16- الصناعي ، محمد بن اسعييل : تفسير غريب القرآن ، تحقيق: محمد صبيحي بن حسن حلاق(مقدمة المحقق)، دار ابن كثير ، دمشق، ط ١ ، ١٤٢٦ ، ص: ٦
- 17- الراغب الأصفهاني : مفردات ألفاظ القرآن ، تحقيق: صفوان داودي ، ط ١ ، دار القلم بدمشق ، ص: ٥٥
- 18- الشاطبي ، إبراهيم بن موسى: المواقفات ، تحقيق: محى الدين عبد الحميد ، ٢ / ٢٠١
- 19- ابن تيمية: اقتضاء الصراط المستقيم لمحالفة أصحاب الجحيم ، تحقيق: ناصر عبد الكريم العقل دار عالم الكتب، بيروت، ط ٧، ١٤١٩ - ٤٤٩ / ١
- 20- ابن فارس: الصاحي في فقه اللغة ، تحقيق: السيد أحمد صقر ، مكتبة مصطفى البافى الحلبي ، القاهرة ، ص: ٥٠
- 21- سورة الأنبياء، الآية : ٨٧
- 22- الأزهري: تهذيب اللغة، تحقيق: عبد السلام هارون، دار المصرية للتأليف والنشر، مصر ، ٩ / ٢٠
- 23- الطيار ، مساعد بن سليمان بن ناصر: التفسير اللغوي للقرآن الكريم ، دار ابن الجوزي ، المملكة العربية السعودية، ط ١ ، ص: ٥٠
- 24- سورة النحل، الآية : ٤٤
- 25- الصناعي ، محمد بن اسعييل : تفسير غريب القرآن ، تحقيق: محمد صبيحي بن حسن حلاق(مقدمة المحقق)، ص: ٧
- 26- راجع للتفصيل إلى كتاب التفسير من: صحيح البخاري و سنن الترمذى و سنن النسائي الكبير
- 27- سورة الحج ، الآية : ٧٢
- 28- الحاكم أبو عبد الله محمد بن عبد الله النسائي: المستدرك على الصحيحين ، دار الفكر ، بيروت ، ٢٠١٩٧٨ ، م ٣٩١
- 29- سورة الواقعة، الآية : ٢٢
- 30- الطبرى، محمد بن جرير: جامع البيان عن تأویل آي القرآن، ١، ١ / ٦٣٢

- 31- سورة البقرة، الآية: ١٢٤
- 32- الطبرى، محمد بن جرير: جامع البيان عن تأویل آى القرآن، ١/٥٧٨
- 33- مسلم بن الحجاج الذى ساپورى: صحیح مسلم، (رقم الحدیث: ٢٥٥١)
- 34- سورة البقرة ، الآیة ١٨٧:
- 35- البخارى، محمد بن اسعیل :الصحیح البخاری ، رقم الحدیث ٤٥٠٩:
- 36- سورة الأعۑم ، الآیة ٨٢:
- 37- سورة لقمان ، الآیة ١٣:
- 38- البخارى، محمد بن اسعیل :الصحیح البخاری، رقم الحدیث ٤٧٧٦:
- 39- سورة البقرة، الآیة: ٢٢٨
- 40- راجع للتفصیل: الطبرى، محمد بن جریر: جامع البیان عن تأویل آى القرآن، ٤/٥٠٠ - ٥١٠
- 41- سورة التکویر ، الآیة: ١٧:
- 42- راجع للتفصیل : الطبرى، محمد بن جریر: جامع البیان عن تأویل آى القرآن، ٣٠/٧٩-٧٨
- 43- الطیار ،مساعد بن سلیمان بن ناصر: التفسیر اللغوي للقرآن الكريم، ص: ٩٦
- 44- سورة القيامة، الآیة : ١١
- 45- الطبرى، محمد بن جریر: جامع البیان عن تأویل آى القرآن، ٢٩/١٨١
- 46- السیوطی، جلال الدین: الإتقان في علوم القرآن، المکتبة العصریة، ١٤٠٧، ١/٩٧
- 47- المرجع السابق ، ٢/٦٨
- 48- سورة المائدة ، الآیة : ٣٥
- 49- رمضان عبد التواب، الدكتور: فصول في فنون العربية، ص: ١١٠
- 50- محمد عبید ، الدكتور: الاستشهاد والاحتجاج باللغة ، عالم الكتب ، القا درة، ط ٣، ١٩٨٨، ص : ١٢٣
- 51- سورة آل عمران، الآیة: ٤٠
- 52- أبو عبيدة: مجاز القرآن ، ١/٩٢
- 53- سورة محمد، الآیة : ٤
- 54- ابن قتيبة: غريب القرآن ، ص: ٤٠٩
- 55- سورة الصّفت، الآیة : ١٢٥
- 56- السیوطی، جلال الدین: الدر المشور، ٧/١١٩
- 57- السیوطی، جلال الدین: الإتقان في علوم القرآن، ١/١١٥
- 58- الطبرى، محمد بن جریر: جامع البیان عن تأویل آى القرآن ، ٦/٣٠٩

- 59- ابن القيم :بدائع الفوائد ، دار الكتاب العربي ، بيروت، لبنان ، 27/3
- 60 - راجع المرجع السابق للتفصيل ، 48-37/3
- 61- الطيار ،مساعد بن سليمان بن ناصر: التفسير اللغوي للقرآن الكريم، ص: ٥٦٣-٥٦٠
- 62- سورة الحج ، الآية : 29
- 63- النحاس،ابو جعفر:معاني القرآن،4/402
- 64- راجع للتفصيل- الشاطبي ، إبراهيم بن موسى: المواقفات ، 403-392/3
- 65- : القاسمي، محمد جمال الدين: محسن التأويل ، 48-46/1
- 66- راجع للتفصيل- الشاطبي ، إبراهيم بن موسى: المواقفات ، 95-70 /2
- 67- : الأشعري، ابو الحسن: الإبانة عن أصول الديانة ، جامعة الإمام محمد بن سعود، ص:56
- 68- قواعد التفسير جمعاً ودراسة: خالد بن عثمان السبت،1/213 ، دار ابن عفان
- 69- سورة النبأ، الآية: 24
- 70- الطاهر بن عاشور:التحرير و التنوير ، الدار التونسية للنشر، تونس 1984 م ، 38-37/30
- 71- الطبری،محمد بن جریر: جامع البیان عن تأثیریل آی القرآن، 6/316